

دور الفاطميين

من سنة ٣٦٤ - ٣٩٤

الدول الثلاث وغزوات الروم

تقلبت على الشام ثلاث دول في مُدَد متقاربة، وهي الإخشيدية والحمدانية والعبيدية. انبثقت الدولتان الأوليان من أصل الدولة العباسية، بمعنى أن الإخشيديين والحمدانيين كانوا كاطولونيين من عمال العباسيين، قوي أمرهم فاستبدوا بالشام. وأنشئوا لهم ملكا لم يتعاقب فيهم عدة بطون وأجيال. أما دولة العبديين فعلى خلاف هذا، كانت دولة شيعية قامت سنة ٢٩٦ بالمغرب، وأول من ولي منهم أبو محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، دعا الدعوة أولا بالمغرب إلى محمد والد المهدي عبيد الله وكان أولا بسَلْمِيَّة من الشام، ولما توفي أوصى إلى ابنه عبيد الله المهدي وأطلعه على حال الدعوة. وشاع ذلك في أيام المكتفي فطلب فهرب عبيد الله وابنه أبو القاسم محمد الذي ولي بعد المهدي وتلقب بالقائم، وتوجه نحو المغرب ونزل تاهرت، وعظم شأنه في القبائل واستجابت لدعوته، وملك ومن بعده معظم شمالي إفريقية وجزائر البحر المتوسط مثل صقلية وساردنية ومالطة وغيرها. والخليفة المعز الذي فتح مصر والشام هو رابع خلفائهم.

نشأت الدولة العبيدية أو الفاطمية أو العلوية كالدولتين الأموية والعباسية بالشام، وقامت بالمغرب، ونمت في مصر، وماتت فيها. ولم تكن على نسبة تينك الدولتين بقوة سلطانها وتأثيراتها، ولذا ظلت دولة أخرى في أقصى الشام تقاسمها السلطة، وهي الدولة الحمدانية، اتفقت معها سياسةً اتفاقها معها مذهبا.

وفي سنة وفاة كافور ٣٥٧ جرت بين فنك بن عبد الله مولى كافور الإخشيدي،

وكان جهزه مولاه لأخذ دمشق ثانية، وبين أهل هذه المدينة مناوشة وقاتل وإحراق ونهب، وبلغه خبر الروم وأخذهم حمص فنأدى في دمشق بالنفير إلى ثنية العقاب بسبب الروم فخرج الناس إلى دومة وحريستا وانتهاز الفرصة في خلو دمشق ورحل عنها وتوجه بأثقاله نحو عقبة دمر متوجها إلى الساحل، فنهب أهل دمشق بعض أثقاله وقتلوا من بقي من رجاله.

لما هلك كافور وهلك سيف الدولة وتولى الفاطميون أمر مصر وفتحوا الشام بقي سعد الدولة ٣٥٦ ابن سيف الدولة في مملكة حلب، ولم يكن كأبيه عقلا وتديبرا فعصى عليه جند حلب سنة ٣٥٧، فنازلها وبقي القتال عليها مدة واستولى الرعيلى على إنطاكية، وجاءت الروم فتزلوا عليها وأخذوها وهرب الرعيلى من باب البحر هو وخمسة آلاف إنسان ناجين بأنفسهم من الروم، فأسر هؤلاء أهل إنطاكية وقتلوا أناسا من أكابرها. وقال عظيم الروم لما ضيقوا عليه: أرحل وأخرب الشام كله وأعود إليكم من الساحل، ورحل في اليوم الثالث ونازل معرة مصرين، فأخذها وغدر بهم وأسر منهم أربعة آلاف ومائتي نسمة، ثم سار إلى عرقة فافتتحها، ثم سار إلى طرابلس فأخذ ربيضا، وأقام في الشام أكثر من شهر

ورجع فأرضاه أهل إنطاكية بمال عظيم. وأحرق حمص وقد أخلاها أهلها
وملك ثمانية عشر منبرا، وعاد إلى بلاده بالأسرى والأموال.

وقال الإنطاكي: إن نقفور لما توجه إلى الشام، خافه سعد الدولة،
فخرج عن حلب إلى بالس، واستخلف فيها قرعويه الحاجب، ونزل
الملك على إنطاكية وأقام يومين ورحل في اليوم الثالث، ونزل على معرة
مصرين وأمن أهلها من القتل، وكانت عدتهم ألفا ومائتي نفس وسيرهم
إلى بلد الروم، وفتح معرة النعمان وحماة وحمص، وأخذ منها رأس
القديس يوحنا المعمداني، ونزل على طرابلس، وأحرق ريفها وحاصر
مدينة عرقة تسعة أيام، وكان لها حصن منيع ففتحه بالسيف وأخذ منها
خلقا كانوا التجئوا إليه من الأقاليم المجاورة وأخذ منه مالا كثيرا، وكان
في الحصن أمير طرابلس أحمد بن تحرير الأرغلي، وكان أهل طرابلس
قد طردوه لجوره، وكان مأسورا ومعه مال جزيل، فأسره وأخذ جميع
ماله، ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها، وحصل في يده من السبي ما
لا يحصى عدده، وفتح حصن أنطرطوس ومرقبة وحصن جبلة، وصالح
أصحاب اللاذقية عليها، وخرّب كثيرا من القرى، وعبر بإنطاكية وميز
السبي الذي معه وأعتق عليها من الشيوخ والعجائز زهاء ألف نفس، وبنى
حصن بغراس مقابل إنطاكية في فم الدرب ورتب فيه رئيسا يقال له
ميخائيل البرجي، ورسم لسائر أصحاب الأطراف طاعته ورتب معه ألف
رجل ورجع إلى القسطنطينية.

وفي تاريخ العلويين أن اليهود كانوا يقطنون في القرن الرابع في أرجاء
صهيون، وينزل النصارى في اللاذقية، والنصيرية في الجبل، ولما استولت
الروم على أرجاء اللاذقية في سنة ٣٥٧ شعر العلويون -أي النصيرية-
بالتنظيمات الإدارية والعسكرية وأعلنوا الثورة على الروم وكان يرأسهم

حسين بن إسحاق الضلعيني العلوي ففاز واستقل باللاذقية سنة ٣٦٨، ثم حكم محمد بن إسحاق التنوخي ثم أخوه إبراهيم.

وفي سنة ٣٥٩ ملك الروم إنطاكية بالسيف، وقتلوا أهلها وسبوا وقصدوا حلب فتحصن قرعويه بالقلعة، وملكوا المدينة بعد حصارها ٢٧ يوما، ثم اصطالحوا على مال يحمله قرعويه كل سنة وقدره ثلاثة قناطير ذهب عن حق الأرض، وسبعة قناطير ذهب عن خراج حلب وقنسرين وحمص وحماة وجوسية وسلمية والمعرة وكفرطاب وأفامية وشيزر وجبل السماق ومعرة مصرين والأثارب وغيرها، وعن كل حالم دينار في السنة سوى ذوي العاهات، وأن يكون لملك الروم صاحب يقوم بحلب يستخرج أعشار الأمتعة الواردة إليها، فرحلت الروم ومعهم الرهائن على ذلك، وقد عقدوا هدنة مؤبدة وصارت الكور سائبة لا مانع للروم عنها، فطمع تقفور ملك الروم في ملك الشام جميعه، ولم يعترف سعد الدولة بالمعاهدة التي جرت بين قرعويه وبين الروم، وظل في معرة النعمان، فأخرب الروم حمص حتى يضطروه إلى الإذعان، ولكن جاءته نجدات فعمرها، وفي سنة ٣٦٣ سار أبو محمود بن جعفر بن فلاح إلى الشام، في عسكر يقال إنه عشرون ألفا ودخل دمشق وتمكن بها، وغادر الروم أرض الشام سنة ٣٦٤ بعد أن فتحوا بعلبك وأخربوها وأخذوا جماعة من أهلها وصالحتهم صيدا وافتتحوا بيروت عنوة وسبوا ونهبوها، وجرى مثل ذلك على جبيل. وقاطعوا أهل دمشق على ستين ألف دينار يحملونها إليهم في كل عام، وكتبوا عليهم بذلك كتابا وأخذوا فيه خطوط أشرفهم وأخذوا جماعة منهم رهينة وأنفذوا إليهم صليبا بالأمان فتلقوه بالإكرام. ثم انقطع حمل المال المفروض على الشام للروم، فأغضوا عن ذلك لاشتغالهم بالحرب في آسيا الصغرى.

وفي سنة ٣٦٥ وصل بارقطاش مولى سيف الدولة إلى شريف ابنه وهو بحماة من حصن برزويه وخدمه وعمر له حمص بعد خراب الروم، وتقوى بكجور مولى قرعويه ونائبه، وقبض على قرعويه بحلب وحبسه بالقلعة واستولى على حلب، فكاتب أهلها أبا المعالي شريفا فجاءهم، وأنزل بكجور بالأمان وولاه حمص واستقر أبو المعالي بحلب. ومن الأحداث في هذا الزمن أن وشاح السلمي ولي إمارة دمشق من قبل الحسن بن أحمد القرمطي المعروف بالأعصم، وكان الوالي إذ ذاك بها صالح بن عمير العقيلي البدوي فخرج صالح عنها، فلما رجعت القرامطة إلى الأحساء رجع صالح بن عمير إلى دمشق وتعصب له أحداثها فأخرجوا وشاحا عنها قهرا وسلموها إلى صالح ٣٦٨. ومنها أن بسيل الملك ردّ ولاية اللاذقية إلى كرموك لسنه الغارة على طرابلس وما يليها وقتله وأسره من

أهلها ومن المغاربة خلقا كثيرا. وورد عسكر المغاربة إلى عمل إنطاكية مع أمير لهم يعرف بالصنهاجي، فاستظهر عليه كرموك وقتل جماعة من أهله، فسار نزال وابن شاكر من طرابلس إلى اللاذقية ٣٧٠ وحاصر حصنها وسار الدمستق الدومستيقس إلى حلب ٣٧١ ووقع الحرب على باب اليهود في اليوم الثاني من نزوله. وطالب سعد الدولة بمال الهدنة على أن يحمل للروم في كل سنة أربعمائة ألف درهم فضة نقية صرف كل عشرين درهما بدينار.

وخالف مفرج بن دغفل بن الجراح على العزيز بالله وجاهر بخلع الطاعة فسير إلى الشام رشيقا العزيزي ٣٧١ فطرده عنها وهزمه. وسار ابن الجراح بعد هزيمته يريد الحجيج ليقطع عليهم الطريق عند رجوعهم، فأنفذ العزيز مفلح الوهباني في عسكر ليلقاهم ويدفع عنهم، فأوقع به ابن الجراح بأيلة وقتله وجميع من معه، وعاد الحجيج إلى مصر فورد ابن

الجراح الشام فلقية رشيق الحمداني دفعة ثانية وهزمه ودخل إلى البرية والتجأ إلى بكجور في حمص فأجاره، وقصد إنطاكية ملتصقا من بسيل الملك النجدة فأطلق له صلة ودفعه إلى الشام والتمس من العزيز الأمان فأجابه إليه.

ولما تفرغ الروم من مشاكلهم قصدوا إلى الشام سنة ٣٧١ فاضطر سعد الدولة إلى تمديد الهدنة معهم معترفا لهم بالسيادة، ومتعهدا بأداء الجزية ليتخلص من حكم الفاطميين ٣٧٣. ثم عاد فأبى أداءها، فاستولوا على كليس وأوقعوا بجماعة من الحمدانية وحاصروا أرامية وقاتلوا أشد قتال، وجاءوا إلى حلب، وسار قرعويه إلى دير سمعان فحاصره ثلاثة أيام وفتحها بالسيف وقتل جماعة من رهبانه، وسبى خلقا التجثوا إليه من إنطاكية ودخلوا بهم إلى حلب وأشهروا بها وأنفذ الدومستيقس سرية من عسكره إلى كفرطاب فأوقعت بجماعة العرب والحمدانية، واستولى المغاربة على حصن بانياس ولم يقبل الروم بالصلح مع صاحب حلب سنة ٣٧٦ إلا على شرط أن يدفع ما تأخر عليهم من الجزية لهم، ورحل بسيل ملك الروم إلى الشام فحاصر حلب وفتح حمص وشيزر وأقام على طرابلس، ودامت معاهدة صاحب حلب مع الروم إلى حين وفاته سنة ٣٩٢. وهكذا أصبحت الدولة الحمدانية بعد عزها على عهد سيف الدولة، ذليلة خاضعة لسultan غيرها في عهد خلفه.

تجاذب السلطة بين العباسيين والفاطميين

هلك المعز الفاطمي وتولى ابنه العزيز ٣٦٥ فقصد أفتكين المستولي على دمشق سواحل الشام وعمد إلى صيدا فحاصرها وبها ابن الشيخ ومعه رءوس المغاربة ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي فقاتلهم، وكانوا في كثرة فطمعوا فيه وخرجوا إليه فاستجروهم حتى أبعدها ثم عاد عليهم

فقتل منهم نحو أربعة آلاف، وطمع في أخذ عكا، فتوجه إليها وقصد طبرية ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا وعاد إلى دمشق.

ثم أرسل العزيز القائد جوهرًا في العساكر إلى الشام، فلما سمع أفتكين بمسيره جمع أهل دمشق وعاهدهم فبايعوه على الطاعة وبايعهم على الذب عنهم، فوصل جوهر إلى دمشق ٣٦٥ ورأى من قتال أفتكين ومن معه ما استعظمه، ودامت الحرب شهرين قتل فيها عدد كثير من الطائفتين، فلما رأى أهل دمشق طول مقام المغاربة عليهم أشاروا على أفتكين بمكاتبة الحسن بن أحمد القرمطي ملك القرامطة واستنجاهه، فجاءهم القرمطي واجتمع إليه من رجال الشام والعرب نحو من خمسين ألفًا، فرحل جوهر من دمشق خوفًا من أن يبقى عدوين، وتبعه أفتكين والقرمطي والتقوا بياقا وحصروه في عسقلان فعابن الهلاك هو وأصحابه من الجوع نحو سبعة عشر شهرًا، فبذل لأفتكين مالا ليمنّ عليه ويطلقه، فرحل أفتكين عنه وسار جوهر إلى مصر، وأعلم العزيز بالحال، فسار العزيز بنفسه إلى الشام

في سبعين ألف مقاتل، ووصل الرملة، فقاتله أفتكين والقرامطة بظاهرها قتالًا شديدًا، فنصر العزيز وقتل وأسر كثيرًا المحرم ٣٦٧ وقد قتل من المغاربة جيش الفاطمي نحو من عشرين ألفًا.

وجعل العزيز لمن يحضر أفتكين مائة ألف دينار، وطلب أفتكين في هزيمته بيت صاحبه مفرج بن دغفل الطائي، فأسره مفرج في بيته وأعلم العزيز به فأعطاه الجعل، وأحضر أفتكين ٣٦٨ فأطلقه العزيز وأصحابه، وبقي عنده معظمًا حتى مات بها. وبعث العزيز إلى الأعصم زعيم القرامطة وهو منهزم فأدركه بطبرية وأعطاه عشرين ألف دينار فسار إلى الأحساء.

ودلّ العزيز بكفه عن قتل أفتكين على بعد نظره، وأنه أثر فيه ما أسداه من الجميل لقائده جوهر في نوبة عسقلان بإطلاقه سراحه وسراح من معه، فقابل العزيز أفتكين على جميله بمثله. خصوصا وأن أفتكين لم يقصر منذ استولى على دمشق بمجاملة خليفة مصر العلوي، وإن كان من جهة ثانية نزع خطبته وأرجع الخطبة العباسية في كثير من مدن الشام، وأكرم العزيز ملك القرامطة الذي ندبه الدمشقيون على لسان أفتكين أن يعاونهم على الخلاص من الدولة المصرية لظلم عمالها ومخالفتها لهم في المذهب، وذلك ليستميل قلبه حتى لا يعود ثانية إلى نصره أحد من أهل بلاده عليه.

سوء حالة دمشق واضطراب الأحكام المصرية

لما فارق أفتكين دمشق إلى فلسطين قدّم على أهلها رجلا اسمه قسام الحارثي من الأبطال المعروفين، وقيل: من أرباب الدعارة العيارين، كان أصله من قرية تلفيتا في سنير، يعتاش بنقل التراب على الحمير، وتنقلت به الأحوال حتى صار له ثروة وأتباع، وغلب على دمشق وما إليها من الأصقاع، بحيث لم يبق معه لنوابها من الفاطميين أمر ولا نهى، ودام ذلك سنين. وكان القائد أبو محمود بن إبراهيم المغربي قد عاد إلى البلد واليا عليه للعزيز فلم يتم له مع قسام أمر، وامتدت أيدي أصحاب أبي محمود بالعيث والفساد وقطع الطرق فاضطرب الناس وخافوا، وانتزع أهل القرى منها لشدة نهب المغاربة أموالهم وظلمهم لهم، ووقعت فتنة عظيمة بين عسكر أبي محمود وبين العامة، فألقى عسكره النار من باب الفراديس فأحرقوا تلك الناحية، وكانت فيها أجمل قصور دمشق، وحرق كثير من أحياء البلد، وهلك فيه جماعة وما لا يعد من الأثاث والأموال، ثم صالحوا القائد أبا محمود ثم انتقصوا ولم يزوالوا كذلك إلى سنة ٣٦٤.

ولما خاف الفاطميون عاقبة قسام الحارثي؛ إذا استلذ طعم الانتصار غير مرة، سيروا لحره الأمير الأفضل فحاصر دمشق وضاق بأهلها الحال، فخرج قسام متنكرا فأخذته الحرس فقال: أنا رسول. فأحضره إلى الأفضل فقال له: أنا رسول قسام إليك لتحلف له وتعوضه عن دمشق بلدا يعيش به وقد بعثني إليك سرا، فحلف الأفضل، فلما توثق منه قام وقبل يديه وقال: أنا قسام. فأعجب الأفضل ما فعله وزاد في إكرامه ورده إلى البلد وسلمه إليه، وقام الأفضل بكل ما ضمنه وعوضه موضعا عاش به، فلما بلغ ذلك العزيز أحسن صلته. ذكر هذا القفطي وأورد الذهبي رواية أخرى في أمر قسام قال: إنه تقدم لقتاله سليمان بن جعفر بن فلاح إلى دمشق فنزل في ظاهرها ولم يمكنه دخولها فبعث إليه قسام بخطه: أنا مقيم على الطاعة، وبلغ العزيز ذلك فبعث البريد إلى سليمان يرده فترحل سليمان من دمشق وولى العزيز عليها أبا محمود المغربي ولم يكن له أيضا مع قسام أمر ولا حل ولا عقد. قال ابن تغري بردي: ولعل الذي ذكره الذهبي كان قبل توجه عسكر أفتكين والأفضل، فإن الأفضل لما سار بالجيوش أخذ دمشق من قسام وعوضه بلدا آخر وهو المتواتر.

وكان من سياسة قسام الحارثي أن كان يدعو للعزيز بالله العلوي على المنابر. وقبل أن يحاربه المصريون وصل إليه أبو تغلب بن حمدان صاحب الموصل

وحط رحاله في حوران، فمنعه قسام من دخول دمشق، فاستوحش أبو تغلب وجرى بين أصحابه وأصحاب أبي تغلب شيء من قتال، فرحل أبو تغلب إلى طبرية، وورد من عند العزيز القائد الأفضل في جيش فقاتله وجماعته حتى قتل في الرملة ٣٦٩ وخلت الديار، وأتت بنو طيغ على الناس وشملهم البلاء منهم.

خوارج على دولة الجنوب ودولة الشمال

كان مفرج بن الجراح أمير بني طيئ وسائر العرب في فلسطين قد كثرت جموعه وقويت شوكته، وعاث في فلسطين وخربها، وهلك من فيها فكان الرجل يدخل إلى الرملة يطلب فيها شيئاً يأكله فلا يجده، ومات الخلق بالجوع وخربت الأعمال، فخاف العزيز عاقبة أمره بعد أن رأى ما أتعب دولته من أمر الخوارج أفتكين والأعصم وقسام وابن حمدان، فجهز العساكر لحربه مع قائده بلكين التركي فسار إلى الرملة، واجتمع إليه العرب من قيس وغيرهم، ولقي ابن الجراح وقد كمن لهم بلكين من ورائهم، فانهزم ومضى إلى إنطاكية فأجاره صاحبها. وصادف خروج ملك الروم من القسطنطينية إلى الشام فخاف ابن الجراح وكاتب بكجور عامل حمص لأبي المعالي بن سيف الدولة ولجأ إليه فأجاره. وكان بكجور والي حمص يمد دمشق أيام هذه الفتن والغلاء ويحمل الأقوات من حمص إليها. وكانت دمشق في هذا العهد قد خربها العرب وأهل العيث والفساد، وانتقل أهلها إلى حمص فعمرت. وربما كان هذا القرن أشأم القرون السالفة في الشام ودمشق خاصة، وكان كل أذى ينزل بها وبأهلها. قال ابن بطريق: سار بكجور إلى أبي المعالي بن سيف الدولة من حلب وهو يومئذ بحمص فخلع عليه أبو المعالي وولاه حلب، وعاد بكجور إلى حلب وأقيمت له الدعوة فيها وفي سائر أعمالها، ووافق بكجور سائر غلمان الدولة على القبض على قرعويه، وسار أبو المعالي إلى حلب وأخرجه من حمص وقبض على قرعويه، وسار أبو المعالي من حلب وفتح المعرة وما يليها في شوال سنة ٣٦٦، ونزل إلى حلب ومعه بنو كلاب، ووقع القتال بينه وبين بكجور، واستظهر أبو المعالي عليه واستقر الأمر بينه وبين بكجور على ولاية حمص. ثم عصى بكجور على سعد الدولة واستدعى جيوش العزيز فسارت معه ونزل على حلب وتحاربوا

يومين، سار الدمستق إلى حلب، وورد خبره على بكجور فرحل إليه، فوقع القتال وجرى بينه وبين سعد الدولة مراسلة واستقر الحال بينهم على أن يحمل إليه سعد الدولة مال سنتين أربعين ألف دينار، وسار الدمستق وقصد حمص وسبى أهلها، وأحرق بها جماعة اعتصموا في المغاور وسار بكجور إلى دمشق وتقلدها.

وكان بكجور يكاتب العزيز الفاطمي بما يقوم به من الخدم فاستنجز وعد العزيز إياه بولاية دمشق فولاه إياها سنة ٧٣ إلا أنه أساء السيرة في أهلها وقتل أناسا وصادر آخرين وجمع الأموال لنفسه، فجهزت العساكر عليه من مصر مع منير الخادم وكتب إلى نزال عامل طرابلس بمظاهرةه. وجمع بكجور العرب وخرج للقاءه فانهزم، ثم خاف من وصول نزال فاستأمن إليه، وتوجه إلى الرقة فاستولى عليها، ودخل منير دمشق واستقر في ولايتها وأحسن السيرة في أهلها، وارتفعت منزلته عند العزيز وجهزه لحصار سعد الدولة بحلب.

وكان بكجور بعد انصرافه من دمشق سأل سعد الدولة العودة إلى ولايته حمص فمنعه لأنه كان نزع يده من الدولة الحمدانية ووضعها في يد الدولة الفاطمية، فلما أخفق عاد إلى دولته الأولى فرفضته وأجلبت عليه، فاستنجد بكجور الملك العزيز لحرب سعد الدولة فبعث إلى نزال بمظاهرةه، فسار إليه بالعساكر، وخرج سعد الدولة من حلب للقاءه وقد أضمر نزال الغدر ببكجور، واستعد سعد الدولة للقاءهم، وقد استمد عامل إنطاكية للروم فأمده بجيش كبير، وداخل العرب الذين مع بكجور في الانهزام عنه وكانوا وعدوه ذلك من أنفسهم، فلما تراءى الجمعان وشعر بكجور بخديعة العرب استمات وحمل على الصف بقصد سعد الدولة فقتل لؤلؤا الكبير مولاها، ثم حمل عليه سعد الدولة فهزمه، فسار إلى

بعض العرب ثم حمل إلى سعد الدولة فقتله، وسار إلى الرقة فملكها وقبض جميع أمواله وكان شيئاً كثيراً.

وزاد مسكويه في تفاصيل هذه الحادثة ما يلي: كان لبكجور رفقاء بحلب يوادونه فكاتبوه وأطمعوه في الأمر، وأعلموه تشاغل سعد الدولة باللذات، فاغتر بأقوالهم وكتب إلى صاحب مصر يبذل له فتح حلب، ويطلب منه الإنجاد والمعونة، فأجابه إلى كل ملتمس، وكتب إلى نزال الغوري والي طرابلس بالمسير إليه متى استدعاه من غير معاودة. وكان نزال هذا من قواد المغاربة وصناديدهم، فتلكأ نزال، وكاتب سعد الدولة بسيل ملك الروم يعلمه عصيان بكجور عليه، وسأله إنجاده بالبرجي صاحبه بإنطاكية فسار إليه، وبرز سعد الدولة في غلمانه وطوائف عسكره، ولم يكن معه من العرب إلا خمسمائة فارس إلا أنهم أولو بأس. وتقارب العسكران ووقع الطراد، وكان الفارس من أصحاب سعد الدولة إذا عاد إليه وقد طعن أو جرح خلع عليه وأحسن إليه. وكان بكجور شحيحاً فإذا عاد إليه رجل من رجاله على هذه الحال أمر بأن يكتب اسمه لينظر مستأنفاً في أمره. فقضى شح بكجور عليه حتى أسلمه إلى خصمه فقتله.

وقد أعطى سعد الدولة سلامة الرشيقي عهداً بالإبقاء على آل بكجور وأموالهم على أن يسلمه حصن الرافعة، وهو بلد متصل بالرقة، فخرجوا منها ومعهم من الأموال والزينة ما كثر في عين سعد الدولة، فإنه كان يشاهدهم من وراء سرادقه، وبين يديه ابن أبي الحصين القاضي. وقال له: ما ظننت أن حال بكجور انتهت إلى ما أراه من هذه الأثقال والأموال. فقال ابن أبي الحصين: إن بكجور وأولاده مماليكك وكل ما ملكه وملكوه فهو لك، لا حرج عليك فيما تأخذه منهم، ولا حث في الأيمان التي حلفت بها، ومهما كان من وزر وإثم فعلي، فلما سمع هذا القول أصغى إليه، وغدر بهم وقبض جميع ما كان معهم.

قال مسكويه: فما كان أسوأ محضر هذا القاضي الذي حسن لسعد الدولة تسويل الشيطان، وأفتاه بنقض الأيمان، ثم لم يقنع بما زين له من غدره، ولبس عليه من أمره، حتى تكفل له بحمل وزره، وهل أحد حامل وزر غيره، أما سمع قول الله تعالى في أهل الضلالة: {وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون}.

حملة الفاطميين على الحمدانيين واستنجاد هؤلاء بالروم

مات سعد الدولة فقام بعده ابنه أبو الفضائل ووصيه لؤلؤ فأخذ هذا العهد على الأجناد لأبي الفضائل، وتراجعت العساكر إلى حلب، فرأى العزيز أن الوقت قد حان لاستصفاء الشام بأسرها وإنقاذها من هذا التذبذب بين الدولتين، جنوبها للعزيز وشمالها للحمدانيين، ولا يفتأ كل فريق يدس للآخر، فسير جيشا كثيفا على حلب وعليه منجوتكين أنفق عليه ألف ألف دينار ونيقا، فلما وصل إلى دمشق تلقاه أهلها وقوادها وعساكر الشام كلها، فأقام بها مدة ثم رحل إلى حلب. قال ابن ميسر: بل كانت بينه وبين أهل دمشق حروب آلت إلى ظفره. وقد استعد واحتشد ونزلها في ثلاثين ألف رجل، وتحصن بها أبو الفضائل ولؤلؤ.

ووقع القتال بين منجوتكين والحمدانية على أفامية فانهزم الحمدانية ٣٨٢ وقتل وأسر جماعة منهم، ونزل منجوتكين على حلب ووقع الحرب في جميع جوانب المدينة ودخل إلى أعمال الروم بسبب اعتقال البرجي لرسوله، ونزل على حصن عم ضيعة البرجي في بلد أرتاح فقاتله وفتحته وسبى وقتل وسار إلى إنطاكية فرشقه الإنطاكيون بالنشاب وعاد منجوتكين إلى منزلة حلب وراجع القتال. وعصى المسلمون في اللاذقية

فسار البرجي إليهم وسباه وحملهم إلى الروم، وعاد منجوتكين من دمشق ونزل على أفامية فسلمها إليه وفاء خادم سيف الدولة ٢٨٣ ورحل إلى شيزر وقاتلها وتسلمها من سوسن غلام سعد الدولة وعاد إلى منزلة حلب.

وكان أبو الفضائل كتب إلى بسيل ملك الروم يستنجده وهو يقاتل البلغار، فأرسل بسيل إلى نائه بإنطاكية ميخائيل البرجي يأمره بإنجاد أبي الفضائل؛ فسار في خمسين ألفا حتى نزل على الجسر الحديد بالعاصي، فلما سمع منجوتكين الخبر سار إلى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل، وعبر إليهم العاصي وأوقع بالروم فهزمهم وولوا الأدبار إلى إنطاكية وكثر القتل فيهم، وجمع من رءوس قتلاهم نحو عشرة آلاف رأس وحملت إلى مصر. قال الإنطاكي: قتل من الروم في هذه الواقعة التي دعيت بوقعة المخاضة ٢٨٤ زهاء خمسة آلاف ويوم منجوتكين إلى إنطاكية ونهب رساتيقها وأحرقها، وكان وقت إدراك الغلة فأنفذ لؤلؤا وأحرق ما يقارب حلب منها إضرارا بالعسكر المصري. وعاد منجوتكين إلى حلب فحصرها وأقام عليها ثلاثة عشر شهرا. فقلت الأقوات فيها وعاد صاحب حلب إلى مراسلة ملك الروم والاعتضاد به، فلما قلت الأقوات إلى العزيز على نفسه أن يمد عسكره بالميرة من غلات مصر، فحمل مائة ألف تليس^(١) في البحر إلى طرابلس ومنها على الظهور إلى أفامية. فكان يوقع للغلمان بجراياتهم وقضيم دوابهم إلى أفامية على خمسة وعشرين فرسخا فيمضون ويقبضونها ويعودون بها. وبني وأصحابه الحمامات والخانات والأسواق.

(١) التليس: قفيزان بالعدل: والقفيز مكيال ثمانية مكايك، والمكوك يختلف باختلاف مصطلح كل بلد.

وعاد منجوتكين إلى منازلة حلب ومحاصرتها وفتح حصن إعزاز
وملك سائر أعمال حلب وولى عليها وبنى حصنا مقابل حلب، وأنجد
ملك الروم صاحب حلب

وكان قد استنجده وأرسل إليه ملكوثا السرياني، فقطع المسافة من
بلاد البلغار إلى حلب وهي ثلاثمائة فرسخ في بضعة أيام. ولما أقبل الروم
أحرق منجوتكين الخزائن والأسواق والأبنية التي كان استحدثها ورحل
في الحال منهزما ووافى بسيل فنزل على باب حلب، وخرج إليه أبو
الفضائل ولؤلؤ ولقياه، ثم عاد ورحل في اليوم الثالث إلى دمشق وفتح
حمص ونهب، ونزل على طرابلس فمكنت جانبها منه، فأقام نيفا وأربعين
يوما فلما آيس منها عاد إلى الروم، وعاد منجوتكين غازيا إلى إنطاكية، ثم
سار إلى حلب ورحل عنها إلى أنطربوس، وقاتل الحصن أياما وسار
عامل الروم إلى أنطربوس ليدفع عنها، وأرسلت مصر أسطولا مؤلفا من
أربعة وعشرين مركبا مشحونا بالرجال فكسر الأسطول بريح عاتية، وخرج
رجال المراكب إلى البر، فانهزم منجوتكين وجميع عسكره وخرج
المقيمون في أنطربوس وأخذوا ما سلم من المراكب وأسروا من رجالهم
خلقا.

الخوارج على الفاطميين واستنجد أمراء المسلمين بالروم

ظن بعد انصراف ملك الروم عن الشام ورجوع الحمدانيين إلى حلب
أن الدولة الفاطمية يطمئن بالها، وما كان يجول في الفكر أن ينقلب عليها
أحد قوادها الذي كانت اصطفته ليدفع عن القطر ما يتهدده من الشر
وأعني به منجوتكين. فقد عصى على خليفته وأراد أن يستنجد الروم فلم
يلتفتوا إليه، فندب الخليفة العساكر من مصر لقتاله وقدموا أبا تميم بن

جعفر عليها، وأمدوه من الأموال ما أسرفوا فيه، وسار أبو تميم من مصر، ورحل منجوتكين من الرملة بعد أن ملكها. والتقى الجيشان بعسقلان وتواقعا فأجلت الوقعة عن هزيمة منجوتكين وأصحابه، فأسر وحمل إلى مصر، وسار أبو تميم فتزل طبرية وأنفذ أخاه عليا إلى دمشق، فامتنع أهلها عليه ومنعوه الدخول، وكاتب أخاه بعصيانهم، واستأذنه في قتالهم، فكتب أبو تميم إلى متقدميهم من الأشراف والشيوخ، وحذرهم عواقب فعل سفهائهم، فخافوا وخرجوا إلى علي مدعين بالطاعة ومنكرين لما فعله أهل الجهالة، فلم يعبأ بقولهم وزحف إلى البلد فملكه، وأحرق وقتل وعاد إلى معسكره.

ووافى أبو تميم في غد فأنكر على أخيه ما فعله، وتلقاه وجوه الناس فشكوا إليه ما أظلمهم، فأحسن لقاءهم وأمنهم، فسكنوا وعادوا إلى معاشهم. وركب أبو تميم إلى المسجد الجامع في يوم الجمعة بزى أهل الوقار، واجتاز في البلد بسكينة، وبين يديه القراء وقوم يفرقون الدراهم على أهل المسكنة، وصلى الجمعة وعاد إلى القصر الذي نزل به بظاهر دمشق، وقد استمال قلوب العامة بما فعله، ثم نظر في الظلامات وأطلق من الحبوس جماعة من أهل الجنايات فازدادوا له حبا، واستقرت قدمه واستقام أمره، وعدل من بعد إلى النظر في أحوال الساحل فهذبها، وولى أخاه طرابلس وصرف عنها جيش بن الصمصامة.

ذكر كل هذا مسكويه، وزاد أن أبا تميم كان مع سياسته مستهترا باللذات، فلم يشعر إلا بهجوم المشاركة والعامة على قصره فخرج من دمشق هاربا، ونهبوا خزائنه وأوقعوا بمن كان معه من كتامة، وعادت الفتنة واستولى الأحداث على دمشق، وثار أهلها مع ما كان فيها من الأولياء المشاركة على ابن فلاح فخرج عن البلد هاربا إلى مصر، وتغلب الأحداث ورأسهم رجل منهم يعرف بالدهيقين، فسارت جيوش الحاكم

إلى دمشق مع محمد بن الصمصامة للقاء الدمشقيين والدهيقين، فسار الدهيقين إلى مصر وطلب الأمان. وقال ابن ميسر في حوادث سنة ٣٨٧: إنه كانت وقعة بين منجوتكين وبين ابن فلاح في الرملة قتل فيها نحو مائة ألف كذا من أصحاب منجوتكين وانهزم ابن الجراح.

وفي سنة ٣٨٨ وقعت النار في أفامية واحترق ما كان فيها من القوات فسار أبو

الفضائل بن سعد الدولة صاحب حلب في عسكر الحلبيين، وقاتلها مدة ثم رجع عنها لما سار إليها دوقس إنطاكية، وحاصرها هذا أشد حصار، فاستنجد الملايطي المقيم بها بجيش بن الصمصامة بدمشق، فسار إليه في عساكر ضخمة، وانتشبت الحرب بينهم، واستظهر عليه الدوقس، وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذت البادية سواد عسكر المغاربة، وبلغت الهزيمة إلى بعلبك، وقتل الدوقس فعادت الهزيمة على الروم فقتل منهم زهاء ستة آلاف وأسر أبناء الدوقس وجماعة من رؤساء عسكره، وحملوا إلى مصر وأقاموا بها عشر سنين ثم فودي بهم.

وسار جيش بن الصمصامة إلى شيزر فخفف ملك الروم بنفسه ففتحها وشحنها بالأرمن، وسار عنها إلى حصن أبي قبيس فأخذه بالأمان وسار إلى حصن مصيات. فملكه أيضا وأخربه وسار إلى رفية فأحرقها وسبى أهلها وتوجه يحرق ويسبي إلى أن بلغ حمص فنزلها وتحصن منها نفر في كنيسة مار قسطنطين تحرما بها. فلما علم الرؤوس من أهل عسكره أحرقوها، وكانت كنيسة معجزة وحمل نحاسها ورصاصها، وسار الملك إلى قرب بعلبك واستصرخ جيش من دمشق إلى مصر بكتبه ووصف كثرة الجموع التي للروم فجردت إليه العساكر وكوتب كل والٍ بالشام بالمسير معه، فساروا حتى اجتمع بدمشق من العساكر كما قال الأنطاكي ما لم

يجتمع فيها للإسلام مثله، ورجع ملك الروم عن طريق الساحل وأحرق عرقة وهدم حصنها ثم نزل على طرابلس ٣٨٩ وحاربها برا وبحرا، ثم رحل إلى إنطاكية، وافتتح حصن أبي قبيس بالأمان.

وامتدت ولاية منجوتكين في إمرة الجيوش الشامية إلى ما بعد سنة ٣٨٦ وكان ظلما جبارا ساءت سيرته في ولايته دمشق وحمص وكثر ظلمه. وولي إمرة دمشق بشارة الإخشيدي من قبل برجوان الخادم الحاكمي ٣٨٨ وكان ولي طبرية قبل أن يلي دمشق مدة سنين. وكان أهل صور قد عصوا ٣٨٧ وأمروا عليهم رجلا ملاحا يعرف بعلاقة. ضرب السكة باسمه وكتب عليها: عز بعد فاقة الأمير علاقة فأرسل عليه الفاطميون أسطولا فاستجار علاقة بملك الروم فأنفذ إليه عدة مراكب مشحونة بالرجال والمقاتلة، والتقت هذه المراكب بمراكب المسلمين فاقتتلوا فظفر المسلمون وملكوا مركبا من مراكبهم، وقتلوا من فيه وانهزمت بقية المراكب. وهكذا استنجد بالروم في هذه الحقبة أميران على بني جنسهما ودينهما ليستمتعا بالملك وهما أبو الفضائل في حلب وعلاقة بصور.

وكان المفرج بن دغفل قد نزل على الرملة وعاث فسادا في أرضها، وانضاف إلى حادثه وحادثة علاقة نزول الدوقس صاحب الروم في عسكر كثيف على حصن أفامية، فاصطنع برجوان جيش بن الصمصامة وقدمه، وجهز معه عسكرا وسيره إلى دمشق، وبسط يده في الأموال ونفذ أمره في الأعمال، وسار جيش بن الصمصامة ونزل على الرملة وعليها وحيد الهلالي واليا فتلقاه طائعا وصادف أبا تميم بها فقبض عليه قبضا جميلا، ونذب الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان في عسكر إلى صور بعد أن كان أنفذ إليها مراكب في البحر مشحونة بالرجال فأحاطت

العساكر بها برا وبحرا وضعف أهل صور عن القتال وأخذ علاقة فحمل إلى مصر فسلخ وصلب بها وأقام ابن حمدان واليا عليها.

وسار جيش بن الصمصامة لقصده مفرج بن دغفل فهرب من بين يديه وعاذ بالصفح فكف جيش عنه، وعاد سائرا إلى عساكر الروم النازل على حصن أفامية، فلما وصل إلى دمشق تلقاه أهلها في أشرافها ووجوه أحداثها مدعين له بالانقياد، راغبين في استصحابهم للجهاد، فجزاهم خيرا فأقبل جيش على رؤساء الأحداث وبذل لهم الجميل، ونادى في البلد برفع المؤن، وإباحة دم كل مغربي يتعرض لفساد، فاجتمعت الرعية وشكروه، وسألوه دخول البلد والنزول بينهم فلم يفعل، ثم سار ونزل بحمص واجتمعت العساكر وتوجه إلى حصن أفامية، فوجد أهلها وقد اشتد بهم الحصار، فنزل بإزاء عسكر الروم بينه وبينهم نهر العاصي. ثم التقى الفريقان من بعد، وكان المسلمون يومئذ في عشرة آلاف من الطوائف وألف فارس من بني كلاب، فحملت الروم على المسلمين فزحزحوهم عن مصافهم، وانهزمت الميمنة والميسرة، واستولى الروم على كراعهم وعطفت بنو كلاب على أكثر ذلك فنهبوه، وثبت بشارة الإخشيدي في خمسمائة فارس، ورأى من في حصن أفامية من المسلمين ما أصاب إخوانهم فأيسوا من نفوسهم.

قالوا: وكان الدوقس عظيم الروم في هذه الواقعة بعد أن تراجع المسلمون على رأسه راية وبين يديه ولداه وعشرة خيالة، فقصده أحمد بن الضحاك الكردي على فرس جواد، فظنه عظيم الروم مستأمنا، فلما قاربه طعنه الكردي فقتله فانهزمت الروم وتراجع المسلمون فركبوا أقفيتهم قتلا وأسرا وألجئوهم إلى مضيق في الجبل وأسروا ولد الدوقس، وحمل إلى مصر من رءوسهم عشرون ألف رأس وألف أسير.

وعاد جيش إلى دمشق فاستقبله أهلها، فخلع على وجوه الأحداث وحملهم على الخيل والبغال، ووهب لهم الجواري والغلمان، وعسكر بظاهر البلد وأخلوا له قرية بيت لها ليكون مقامه بها، وتوفر على استعمال العدل وتخفيف الثقل، فاستخص رؤساء الأحداث واستحجب جماعة منهم، ثم أوقع بهم كلهم، ودخل البلد وثلّم السور من كل جانب، واستغاث الناس به ولاذوا بعفوه، فكف عنهم واستدعى الأشراف استدعاء حسن ظنهم فيه، فلما حضروا أخرج رؤساء الأحداث وأمر بضرب رقابهم بين أيديهم، ثم صلب كل واحد في محلته. وجرى إلى المرج والغوطة قائدا وأمره بوضع السيف فيمن بها من الأحداث فقال: إنه قتل ألف رجل منهم، حتى إذا فرغ من ذلك كله قبض على الأشراف وحملهم إلى مصر واستأصل أموالهم ونعمهم، ووظف على البلد خمسمائة ألف دينار. وكان عدد من قتلهم ثلاثة آلاف رجل، واحتال للقضاء على هؤلاء الأحداث بأن جعل يبسط الطعام كل يوم لهم ولمن يجيء معهم من أصحابهم، فكان يحضر كل إنسان منهم في جمع من أصحابه وأشياعه، وأمرهم إذا فرغوا من الطعام أن يحضروا إلى حجرة يغسلون أيديهم فيها، وأمر أصحابه إذا دخل رؤساء الأحداث الحجرة أن يغلقوا بابها عليهم ويضعوا السيف في أصحابهم، فلما كان الغد حضروا الطعام، وقام الرؤساء إلى الحجرة، فأغلقت الأبواب عليهم وقتل من أصحابهم نحو ثلاثة آلاف رجل.

تولى جيش نيابة دمشق غير مرة، وكان ظالما سفاكا للدماء ظلم الناس كثيرا. قالوا: وعم الناس في ولايته البلاء من القتل وأخذ المال حتى لم يبق بيت في دمشق ولا بظاهرها إلا امتلأ من جوره؛ خلا من كان ظالما يعينه على ظلمه. وممن ولي دمشق للمصريين وساءت سيرته ختكين القائد ث. القائد طرملة بن بكار البربري، وكان عبدا أسود، فجار على

أهلها كما جار ختكين وظلمهم وأخذ أموالهم، وفر إلى مصر وحمل بعض ما كان معه إلى الحاكم، فتمكنت حاله عنده وولاه دمشق فأقام والياً عليها إلى سنة ٣٩٤، ثم صرف عنها بخادم من خدم الحضرة.